عدد خاص
العلوم عند العرب

75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والفنون - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الرابع ١٣٩٨ - ١٩٧٧ م

مقدمة في التراث الحضاري لتصنيف العلوم

بقلم
محمد حسن كاظم الخفاجي
مكتبة كلية طب الاسنان ـ بغداد

تضم الحضارة الاسلامية تاريخا واسعا لعلم التصنيف حري بالبحث والتتبع لم يحصل على نصيبه من الذكر من قبل مؤرخي علم التصنيف الغربيين او يحصل على شيء من الدراسة من قبل مؤرخينا العرب .

لعلني اكون قد تلمست بعض ملامح هذا العلم التاريخية ، وان اعد قائمة ببليوغرافية في المصنفات فيه .

اهمية علم التصنيف والحاجة اليه :

يحتل علم التصنيف اهمية خاصة من بين العلوم الفلسفية كهيكل تنظيمي للمعرفة ، اذ هو يتناول تقنينها في مختلف فروعها المتعددة . واعتبر الفلاسفة تصنيف العلوم اول ابواب العلم بها ، حتى قيل ان تاريخ التصنيف هو تاريخ الفلسفة في بعض الفترات التأريخية باعتباره صورة تنظيمية للمعرفة التي تؤلف احدى مسائل الفلسفة الثلاثة الكبرى : الوجود ، المعرفة ، والاخلاق .

تعد نظم التصنيف صورة للحياة العقلية لدى الامم وانعكاسا للنظام التربوي والعلمي ، توضح المسار الذي سارت فيه حركة العلوم واوقات ظهورها منذ اقدم العصور حتى يومنا هذا .

الحاجة الى التصنيف نشأت منذ الفترات الاولى بعد ان كانت المعارف البشرية في عهد نشأتها محصورة ضمن حلقة ضيقة دعاها اليونان «الفلسفة» او الحكمة ، ومن تلك الحلقة انفصلت ونمت علوم ومعارف واتسع نطاقها وكثر نتاجها ، فأدرك العقل ضرورة تصنيفها وتقسيمها تسهيلا لاحرازها . واذا كانت العلوم بعددها الجم وبفروعها الكثيرة ومسائلها المتشعبة ، فيمكن عندئذ ان نتصور مقدار التشابك والسعة الحاصلة في وسائل نشرها سواء التقليدية منها او الحديثة .

هذه الزيادة الهائلة لعدد وسائل النشر لم يعد ممكنا ان يحاط بها اذا لم تكن هناك وسيلة تقننها وتنظمها تسهيلا لاسترجاع مواد هذه المعلومات حين يحتاجها باحث او قارىء . فلابد ان تهيأ بطريقة يمكن الافادة منها من جانب فرد ذي اختصاص معين لمسالة معينة او مشكلة بعينها ، مع مراعاة الدقة والاقتصاد في الوقت والجهد ، مدركين ان تلك المواد العلمية ما لم تنظم تنظيما مدروسا يعني ضياع الباحث في خضم هذا النتاج الفكري ، وبالتالي الضياع الكبير لمواد المعرفة ذاتها لعدم الافادة منها . اذن فلابد من وسيلة تهدف الى كفالة الوصول الى المعرفة المسجلة بطريقة مناسبة فعالة، خاصة اذا عرفنا ان استرجاع المواد العلمية لا يتم بصورة كلية .

عرض تاريخي :

والعلماء بحل مشكلة تصنيف العلوم ووسائل نشرها ان حظي «علم التصنيف» بتاريخ واسع يبدأ مع مسيرة الفلسفة في الحضارة اليونانية لما ظهر على يد سقراط وافلاطون وارسطو من خطط تصنيف، ويمتد الى فلاسفة الحضارة الاسلامية ، كالكندي، الفارابي ، والخوارزمي ، ابن سينا ، اخوان الصفا، الغزالي ، ابن عربي ، الى ابن خلدون ، ومن علمائها الميداني ، السيوطي ، القلقشندي ، ابن النديم ، طاش كبرى زادة ، وحاجي خليفة ، حتى عصرنا الحاضر من فلاسفة النهضة الحديثة امثال فرنسيس بيكون ، وهوبز ، واسبينوزا ، وديكارت ، اذ رست

حديثا لهذا العلم اسس وقواعد وتفرعت مسائله وتشعبت واصبح لها تخصص كما هو الشأن في جميع العلوم ، لما ناله من نمو على يد علماء متخصصين فيه امثال ملفل ديوي (١٨٥١-١٩٣١) ؛ س . ر . رانكاناثان العالم الهندي الرياضي ١٨٩٢ - وابول اوتليه وهنري لافونتين .

التصنيف عند المسلمين :

ربما يخطر على بال كل فرد سواء اكان دارسا لنظم تصنيف العلوم ام كان رائدا للمكتبة وهو يستخدم فهارسها فيها نظم تصنيف غربية بلغتها الاجنبية او المترجمة يخطر على بالهما فيما اذا كان للمسلمين مثل هذه التصانيف في عهد حضارتهم لما لهم من مكتبات تدل على رقيهم فهي مقياس تقدم الشعوب وثقافتها ، احتوت على اعداد ضخمة من المؤلفات مما يستوجب حاجتها الى نظام يربط بين تلك المجاميع والاعداد الهائلة لموادها بحيث يسهل معه عملية الاسترجاع والاعارة .

واذ اعرفنا حقيقة ان لا ابتكارات مخلوقة من العدم فما التصانيف الحديثة الا ولها جذورها المستمدة من التصانيف الفلسفية والعملية القديمة.

التصنيف العملي في المكتبات الاسلامية :

تجد حين تستعرض تاريخ المكتبات في عهد الحضارة الاسلامية اشارات واضحةعن وجود هيكل تصنيفي ينظم مجاميعها كانت تطبيقا عمليا لخطط تصانيف كثيرة في تلك العصور .

فاذا كان للفيلسوف العربي الكندي خطة تصنيفية قسم كتب ارسطو على اساسها وكانت له مكتبة تسمى المكتبة الكندية ، فلا شك انه حاول ان يرتب كتبه الكثيرة التي حوتها خزانته حسب نظام ما ، يظن الاستاذ خالد الحديدي انه رتبها كما رتب كتب ارسطو بعد ان اضاف الى هذه العلوم علوم الاسلام من اصول وقواعد وتوحيد(١)

واذا كانت مراجع ابن النديم في تاليفه «الفهرست» هي صناعة الوراقة مما اتاحت له ان يدخل المكتبات عامها وخاصها وان يطلع على مجاميعها وان تكون صلته وثيقة بالطبقة المثقفة اضافة الى مراجعته فهارس الكتب لا سيما تلكالتي نظمت ايام العصر الذهبي للفكر العربي والامة الاسلامية . نستنتج من هذا الاطلاع وهذه الصلة والمراجعة امرا مهما هو انه قد يكون تقسيم ابن النديم للعلوم كان خلاصة منقحة ومدروسة ومنظمة للتقاسيم الموجودة في المكتبات في عصره ومما يدور في خلد افكار العلماء والقائمين على تلك المكتبات اخرجها بعد تمحيص وتنظيم .

ذكر ابن سينا عن مكتبة «بخارا» التي كان يختلف اليها «فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجت منها ...(٢)» وهذه الاشارة تدل على وجود اسلوب من التنظيم والتصنيف لمجاميع المكتبات كما نجد اليوم فهارس للمخطوطات في مكتباتنا وكما نجد لها رقما خاصا في التصنيف الحديثة .

كان التصنيف ممثلا بالفهارس المعدة لكل فن تستعمل كالكتب يرجع اليها القاريء من اجل معرفة محتويات المكتبة ، واما ان تكون اسماء الكتب او المؤلفين مكتوبة على لائحة معلقة على مدخل كل قسم من الاقسام في المكتبة ،فقد بلغت فهارس مكتبة الحكم الثاني في قرطبة لدواوين الشعر ٤٤ فهرسا ، كل فهرس عشرون ورقة(٣) لانها كانت مرتبة حسب المواضيع اي ان لكل موضوع له فهارسه الخاصة وهذا ما يسمى اليوم بالفهارس الموضوعية او الفهارس حسب الموضوعات . وفي مكتبة قصر الخلفاء الفاطميين في القاهرة فهارس لكل نوع من انواع الكتب ، والشيء نفسه يقال عن خزانة عضد الدولة في شيراز ومكتبة السلطان نوح بن منصور الساماني فنجدها مصنفة حسب المواضيع قد خصص لكل علم بيت خاص وكذا مكتبة المدرسة المستنصرية قد افرد لكل فن سجل خاص بكتبه ووضعت الكتب اليونانية التي وردت بيت الحكمة حسب موضوعاتها(٤) .

واذا كانت الكتب تفهرس وتصنف حسب الموضوعات واسماء المؤلفين وتسجل على هيئة كتاب به قوائم لها فمن المحتمل بل الاقرب الى الواقع ان تكون طريقة ترتيب الكتب على الرفوف هي ان الكتب التي تعالج موضوعا واحدا توضع في دولاب مستقل وكذا توجد الموضوعات المتقاربة في التصنيف مثل الفقه الاصول والحديث ، والبلاغة في امكنة متقاربة على الرفوف لان تجاوزها ييسر سرعة تداولها والتعرف عليها كما يدل على ذلك بعض الاشارات السابقة . فالنظام في جل المكتبات الاسلامية هي ان توزع الكتب على الحجرات حسب موضوعاتها غرفة للعلوم العربية وعلومها ، وغرفة للفقه واخرى للحديث وهكذا عرفت المكتبة الاسلامية الفهارس منذ نشأتها الاولى فكان لكل مكتبة فهارسها المنظمة تنظيما دقيقا حسب موضوعاتها. وتتبع الآن مكتبات حديثة طريقة توزيع الكتب حسب موضوعاتها على غرف معينة كل واحدة لموضوع مستقل .

واخيرا من الجدير الاشارة الى ما ذكره الاستاذ Johson من ان المكتبات الكبيرة في الاسلام تحوي على فهارس عديدة لموادها في مختلف المواضيع . ومن الاندلس استلم الغرب ترجمات تصنيفات الكتب من المسلمين(٥) .

كل ذلك يدل على ان المكتبات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية كانت تنظم مجاميعها وفق خطط تصنيف اعتمدها القائمون على تلك المكتبات سواء كانت من ابداعهم ام كانت خطط تصنيف لعلماء او فلاسفة(٦) .

مجال علم التصنيف :

يمثل علم التصنيف في الحضارة الاسلامية جزءا من نظم التعليم عندهم وقد افرد الاستاذمحمد اسعد طلس في كتابه «التربية والتعليم في الاسلام» فصلا عن تقسيم العلوم تناول فيه الفارابي باعتباره الرائد الاول لهذا العلم(٧) . وكان هذا الفرع من المعرفة كان يكون لديهم علما قائما بذاته الف فيه الكثيرون من الفلاسفة والعلماء ، واحلوه محلا ساميا اذ ادرجوه ضمن العلوم الالهية وجعلوه فرعا من الفلسفة باعتبار ان تصنيف الشيء اول العلم به فكان تصنيف العلوم اول ابواب العلم بها واول ابواب العلم بالمعارف هي الفلسفة ، يقول طاش كبرى زاده ان علم التصنيف هو «التدرج من اعم الموضوعات الى اخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الاعم . ولما كان اعم العلوم موضوعا هو العلم الالهي جعل تقسيم العلوم من فروعه ، ويمكن التدرج فيه من الاخص الى الاعم ... وصنف ابن سينا رسالة لطيفة فيه»(٨).

اجمل المؤلف الببليوغرافي في عباراته هذه :

١ ـ تعريف علم التصنيف اي علم تقاسيم العلوم .

٢ ـ تبعية التصنيف من الناحية العملية : فالعلم الالهي هو اعم الموضوعات موضوعا لذا جعله من فروعه لانه تدرج من اعم الموضوعات الى اخصها .

وهذه التبعيةتعكس الاصل الفلسفي للتصنيف فقد نشأ مرتبطا بالفلسفة .

٣ ـ طرق التصنيف :

ا ـ الطريقة الاستدلالية بلغة المناطقة ، التدرج من العام الى الخاص .

ب ـ الطريقة الاستقراطية : اي البدء من الجزئيات جزئيات الموجودات والموجودات هنا هي جزئيات وفرعيات العلوم ، وضم بعضها الى بعض ليحصل بينهما الجامع المشترك الذي يتواجد في الفرع الرئيس لها .

٤ ـ مثال للمؤلفات فيه :

وعملية التصنيف التي يذكرها تعني تقسيم المعرفة الى فصول وانواع واجناس والتي تمثل العام والخاص مع محاولة لبيان العلاقة التي تربط كلا منها بالاخر موضحا مكان كل علم بالنسبة للعلوم الاخرى كلبنة في بناء المعرفة ككل ويهدف في ذلك الى ترتيب العلوم في مجموعات متميزه وفي تسلسل منطقي وفقا لنظام معين .

ووضع ابن سينا ٤٥٩هـ دراسة عن اختلاف العلوم واشتراكها ضمنها اصول وقواعد حدد بها الامور التي تعتمد في تصنيف العلوم والاسس المتخذة في تعدادها وحصرها والخاصيات التي تفترق على اساسها وتشترك فيها وبيان الربط بين الفروع المختلفة(٩) .

خطط التصنيف :

يلاحظ على خطط التصنيف الاسلامية تأثيرها الكبير بالميل التطوري لسير الثقافة في المجتمع الاسلامي انذاك كنتيجة طبيعية اذ انها تعد صورة للحياة العقلية لدى الامم وتوضح المسار الذي سارت فيه حركة المعرفة في اية امة كانت ، فالكندي (١٨٤ ـ ٢٥٠هـ) اول مصنف عند العرب قسم العلوم الى قسمين دينية وفلسفية او الهية وانسانية(١٠) فكان هذا التقسيم ابتكارا اسلاميا صرفا كانت دوافعه هو ما جاءت به الحضارة الاسلامية من علوم دينية كنتيجة من نتائج النهضة الفكرية التي اوجدها القرآن الكريم في الامة الاسلامية وما دعاهم اليه من التفكير في العقل والحكمة والنظر في الامور وما جاء به من علوم لا غنى عنها فيتنظيم حياتهم العملية كعلم الفقه وعلمي السياسة والاخلاق أو الحياة الثقافية العقائدية لهم كعلم الكلام والتوحيد والعقائد .

اما الخوارزمي (٣٨٧هـ) فيعد اول من قسم العلوم الى علوم عربية وعلوم دخيلة كقسمين مستقلين(١١) مستمدا هذا التصنيف من واقع الحياة التي يعيشها ممثلة لمقومات فكر وحضارة مجتمعه القائم . ثم انه لم يترك خطته التصنيفية مغلقة فلربما دخل اي من العلوم مسائل جديدة او امور لم تكن تندرج تحت فرع معين فاوجد لها «باب النوادر» ومن محاسن خطته الجيدة انه لم يترك مصطلحاته مفتوحة لان تتحمل كل ما يرد من

معان بل اعطى لها حدود تعريفية تضبط معانيها ومضامينها وبالتالي تبين مجالاتها التي يمكن ان تندرج تحتها الموضوعات المختلفة .

اما اخوان الصفا وخلان الوفاء (القرن الرابع الهجري) العاشر الميلادي فجاء على اكمل وجه واشمل توزيع وادقه ، فيجعلون المعرفة كعلم قائم بذاته افردوا له رسالة خاصة من رسائلهم هي «رسالة اجناس العلوم وقيمتها وحددوا هدفهم في اعدادها فهم يريدون ان يذكروا «اجناس العلوم وانواع تلك الاجناس ليكون دليلا لطلاب العلم الى اغراضهم» .(١٢) وتصنيفهم للمعرفة هذا كان تصنيفا موسوعيا وعمليا اذ حصل له عندهم نوع من التطبيق لان الرسائل التي كتبوها قد ابرزت هذا التصنيف الى حيز التطبيق العملي اي انهم تركوا لنا تقسيما نظريا وآخر تقسيما عمليا كانت رسائلهم مصاديق له اذ انها في شتى العلوم والمعارف .

اما خطة تصنيف المعلم الثاني الفارابي فقد ارست اسس مدرسة علم التصنيف في الثقافة الاسلامية باعتباره الرائد الاول له . وسيأتي ان شاء الله حديثا خاصا عنه في حلقة قادمة .

ومن هذه الملاحظات الوشيكة نجد ان كل خطة تمتاز عن غيرها بخاصية تفردها عن الخطط الباقية وتتمتع بالتأثير المتبادل للتطور الثقافي اذ انها تتأثر بهذا التطور وتأثر فيه كجزء تنظيمي وعنصر مساهم له فبعد ان يكتشفها ويبلورها صاحبنا العالم او الفيلسوف ، ويظهرها الى عالم الثقافة فتنظم نه مسائله ووسائله ومن هذا التنظيم الذي يعطي استرجاعا لمواد المعرفة تسهم المواد المسترجعة بنصيبها من الفكر والعلم .

وهذا حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون» قد رتب العلوم على جامعا عنوان الكتب واسماء المؤلفين واسماء العلوم في ترتيب هجائي واحد واذا كانت هذه الطريقة نوعا من انواع الفهارس فانها يمكن ان تعتبر نوعا من انواع التصنيف ارتأها صاحبنا تخلصا من الطريقة التصنيفية التي راينا امثلتها عند المصنفين القدامى لما في هذه الطريقة الاخيرة من مساويء عدم معرفة محل العلم في سلسلة التصنيف او انه فرع لهذا العلم او ذاك . وهو بالاضافة الى ذلك يدرج تحت كل علم فروعه وتحت كل فرع الكتب المؤلفة فيه ، وتحت كل عنوان كتاب شروحه وحواشيه . ثم انه يورد تعريفات للعلوم وهذا التحديد واحد من مستلزمات خطة التصنيف كما هو واضح ويذكر تفاصيل كثيرة عن كل علم فيمضي في التفريع حد الاستيفاء ، معتمدا في ذلك على استاذه طاش كبرى زاده ، مقتبسا منه الكثير .

لم تكن لدى حاجي خليفة اية اشارة الى انه اراد ان يظهر طريقة تصنيفية جديدة في ترتيب العلوم ، وانما كانت غايته في تاليفه ما ذكره من ان «... الانسان محتاج الى تكميل نفسه ... ولا يتم هذا الا بالعلم فلزم الانسان العلم بانواع العلوم ليتبين منها الغرض ثم العلم باصناف الكتب في نفسها ومرتبتها(١٣) ومهما يكن فان النتائج قد تكون غير مقصودة قصدا مباشرا من حيث تحصيلها ، واعطائها ثمرة جيدة تنفع في نواح اخرى .

ومن المصنفين الانصاري ، شمس الدين بن ساعد ٧٩٤هـ في كتابه «ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد» اعتمدها الاستاذ محمد فريد وجدي في دائرته «دائرة معارف القرن ١٤ العشرين» في حديثه عن انواع العلوم عند العرب(١٤) يعطي الانصاري اسباب التفرع ويعزوها الى اسباب فلسفية .

اما صاحب المدرسة الببليوغرافية ابن النديم فرائد اول في اعداد الببليوغرافيات في الحضارة العربية . وسيأتي الكلام عنه في مقالة قادمة ان شاء الله .

ومن اشهر مصنفي العلوم ومبوبيها في مجالي التصنيف النظري والتصنيف العملي العلامة المعروف بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» فهو يبين اسماء الكتب المؤلفة في الموضوعات المختلفة ليكون عونا في تحصيل العلوم . فهو كببليوغرافية وصفية تراجمية ادرجت موادها تحت مواضيعها . كما تفعل المراكز الببلوغرافية والايداعية يدرج العلوم ويبين تفرعاتها خاصها وعامها ويعطي لبعضها تعريفات وافية ويوضح اصولها وفروعها وبيان اهم المؤلفات فيها .

وكتابه دراسة علمية للمعرفة العربية في مختلف موضوعاتها منذ ابتدائها حتى عصره يمثل موضوعه ارقى واكمل ما وصل اليه تصنيف العلوم استعملها كانت دقيقة حيث استعمل قاعدة الاحالة فيحيل من علم لاخر بصورة كثيرة . ويتبع قاعدة الربط بين الموضوعات والعلوم فقد يدرس موضوع ما في علم من العلوم ولكن له الصلة في علم آخر فيلتزم بقاعدة التحديد لموضوع العلم حتى لا يلتبس معه علم آخر وذلك ما فيه من فائدة عند التطبيق العملي للتصنيف ، فقد يبقى كتاب ما متارجحا بين

موضوعين ربما يكون السبب في ذلك اختلاط موضوعه وعدم ادراك المصنف للفرق والتمييز بين موضوعي العلمين . ويحدد موقع العلم في سلم العلوم الاخرى بدقة ناظرا الى كل الاحتمالات التي يمكن ان ترد واضعا العلم في مكانه الذي يعتبره مؤديا تأدية تامة في الارتباط بموضوعه اولا وبالعلوم المتفرعة معه ثانيا مبينا الاسباب المنطقية الداعية لذلك ، معطيا تفريعات واسعة جدا للعلوم وبخاصة العلوم العربية والاسلامية يمكن ان يستفاد منها في عمليتين احدهما تبني تصنيف عربي اصيل لهذه العلوم وثانيهما اعتمادها فيعملية التعريب والتعديل للتصانيف الحديثة ولا سيما تصنيف ديوي او التصنيف العشري العالمي ، ولكنه مع ذلك اورد كثيرا من مسائل العلوم فجعلها علوما قائمة بذاتها لها كيان العلم مع انها من مسائل تلك العلوم(١٥) .

ومن هذه الالمامة السريعة نرى ان تلك التصانيف تتدرج نحو اكتمال خصائص الخطة الجيدة التي عرفت اليوم ، ولا نقول انها حوت كل تلك الخصائص باكملها ـ فمسألة المقارنة بين تصانيف الماضي والحاضر امر فيه كثير من الغبن والتكلف .

بل كانت سبيلا لخطط تصنيف اليوم لتتمتع هذه الاخيرة بالخصائص المقبولة التي توفرت في تلك التصانيف ـ كما كانت هي ثمرة من ثمرات ما سبقتها من تصانيف قديمة كتصنيف ارسطو وافلاطون وغيرهم ، ولكنها ـ اي التصانيف الاسلامية ـ مع ذلك تفترق افتراقا كبيرا عنها بمالها من شخصية مبتكرة وبما افترقت عنها بميزات وخصائص وهياكل تصنيفية لا نجدها في التصانيف اليونانية ومن ذلك ندرك خطأ مزاعم البعض من ان التصانيف الفلسفية للعلوم عند الفلاسفة المسلمين لم يكن بها اختلاف عن التصانيف اليونانية وانها صورة منقولة عنها ، مدركين ان الابتكار العلمي ما هو الا حياكة الخيوط المتفرقة في نسيجواحد وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم وما هذه التصانيف حديثها وقديمها على امتداد التاريخ الا حلقات مترابطة ابتدعها الفلاسفة والعلماء . وما من تصنيف الا وله جذوره المستمدة من التصانيف السابقة مع ما تتمتعبه كلخطة من ميزة جيدة تفردها لتصنيف صورة مبدعة جديدة للحياة العقلية .

فذلكة تاريخية لنشوء علم التصنيف والمؤلفات المصنفة فيه .

اذا اردنا ان نؤرخ لعلم التصنيف في الحضارة الاسلامية فيمكن ان نبداه مع بداية العصر الذهبي للعلوم اي العصر العباسي الثالث (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) ولابد من ان نشير هنا ان الارتقاء التاريخي والفكري لهذا العلم لم يكن وليد الساعة التي يورخ له فيها انما لابد له من جذور يستمد منها ارتقائه وظهوره، كان ما شهده هذا العصر من سعة التاليف وبلوغ حركة التعريب اوسع مجالاتها والنشاط الكبير لدخول الثقافات الاجنبية وانصهارها في المجتمع انذاك كل تلك النشاطا تكانت مستلزمات مهيئة وداعية لان تكون المواد الذهنية التي تنظم تنسيق هذه العلوم ووسائلها المتمثلة في الكتب لان تصبح علما متميزا له كيان ظاهر بعد ان كانت مسالة ذات مجال محدود من حيث ما هو كائن لها فعلا في مجال التطبيق العملي في الحياة الثقافية وذلك لقلة النشاط الثقافي او الفكري الذي هو من الاسباب الموجبة لظهور هذا العلم كما ان النشاط العلمي يستوجب معه هذا العلم لينظم له مواده ووسائله .

اذا تطلعنا كتب المؤرخين لهذا العلم من المحدثين الغربيين راياهم يهملون ذكر مصنفي العلوم الاسلامية ربما عن قصد او غيره . اما مورخو العرب فلم يكن لهذا نصيب فهم من الدراسة والبحث .

فالعالم Sajers في كتابه

(١٦)
An Introduction to Library Classification

لم يذكر من قريب او بعيد باية اشارة الى تصنيف واحد من فلاسفة المسلمين مع انه ادرج قائمة بالفلاسفة ذوي التصانيف مبتدأ بفلاسفة اليونان فالعصور الوسطى الى تصنيف وانكاناثان في سنة ١٩٣٣ وقبله روجر بيكون.ومبتدأ بالتصانيف العملية للمكتبات بمكتبة اشوربانيبال وخاريماخوس (٣٤٠ ـ ٢٦٠ ق.م) .

ومهما يكن فانه يمكن ان نلاحظ ان هناك نظرتين نشأتا في العصر العباسي الثالث هما :

١ ـ نظرة الى العلوم : تحصي فروعها وتعرف بحدود كل فرع .

٢ ـ نظرة ثانية كانت امتدادا للنظرة الاولى تناولت التعريف بالكتب ومؤلفيها .

كان يمثل المدرسة الاولى صاحبها الفيلسوف الفارابي ٢٥٦ ـ ٣٣٨ هـ في كتابه

١ ـ احصاء العلوم

ولابد من الاشارة الى محاولة سبقت الفارابي كانت على يد الكندي (٢٥٠هـ) في رسالته

٢ ـ كتب ارسطو ومايحتاج اليه في تحصيل الفلسفة .

اذ كتب ارسطو الى مواضيعها وهي وان كانت بداية ونواة للتصنيف فان تصنيف الفارابي كان اكثر اتضاحا في الهدف والغاية

كان يمثل المدرسة الثانية «ابن النديم» في

٣ ـ الفهرست

كان من دوافع هاتين المدرستين او هذين الاتجاهين هو ما شهده العصر العباسي من غمرة التأليف وشدة الحركة العلمية اخذين بنظر الاعتبار ان بداية كل اتجاه لابد له من اصول مهدت له هذا السبيل فكان هناك من يمثل سير هاتين المدرستين قبل الفارابي كما رينا عند الكندي ، وقبل ابن النديم كما هي متمثلة في ابي محمد احمد بن طيفور البغدادي المتوفى سنة ٢٨٠هـ في كتابه

٤ ـ اخبار المؤلفين والمؤلفات(١٧) .

وانما اعتمدنا الفارابي وابن النديم كممثلين لحركة هاتين المدرستين لظهورهما وللتبلور الذي احدثهما الرجلان في معالم هذين الاتجاهين .

امتدت نشاطات هاتين المدرستين في متابعة ما بداه رائدا هذين الطريقين حتى العصر العثماني ممثلا في طاش كبرى زادة وحاجي خليفة اذ عاشا في ظل الدولة العثمانية .

نجد من المدرسة الاولى في العصر العباسي الرابع الخوارزمي (٣٨٧هـ) في

٥ ـ مفاتيح العلوم .

وابن سينا (٤٥٩هـ) في ٦ ـ الشفاء و ٧ ـ رسالته في «اقسام العلوم العقلية» وكتاب محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ المسمى

٨ ـ الفهرست ايضا والجرجاني (٤٧٠هـ) في كتابه ٩ ـ التعريفات ١٠ ـ كتاب جامع الفنون ـ ومنه جزء بمكتبة برلين لمؤلفه الوادي اش (٤٩٦هـ) وايضا كتابه

١١ ـ ينابيع العلوم في الفنون السبعة : التفسير ، الحديث الفقه ، الادب ، الطب ، الهندسة ، والحساب ومنه نسختان بمكتبة ليدن والاخرى بالمكتبة الاهلية بباريس ثم نجد

١٢ ـ الغزالي (٥٠٤) في كتابه « احياء علوم الدين» وبعده نجد القزويني ، جمال الدين (٥٢٧هـ) يضع كتابه

١٣ ـ مفيد العلوم

١٤ ـ الميداني (٥٣١هـ) في «السامي في الاسامي» ثم

١٥ ـ ابن خير البلوي (٥٥٩هـ) في «نموذج العلوم» ويشمل (٧٤) علما منه نسخة بمكتبة فينا ثم :

١٦ ـ الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦هـ) وكتابه هو «حدائق الانوار في حدائق الاسرار» وقد اورد فيه «٦٠» علما وزاده محمد شاه بن الفناري عليه اربعين علما فصار (١٠٠) علم وسماه :

١٧ ـ انموذج العلوم وهو على طرازه ولكنه بلغة فارسية(١٨) ثم الفيلسوف ابن عربي (٦٢٧هـ) في ١٨ ـ الفتوحات المكية . وبعده السكاكي (٦٢٦هـ) في ١٩ ـ مفتاح العلوم . واخوان الصفا في رسالتهم :

٢٠ ـ «اجناس العلوم» .

اما عن مدرسة ابن النديم فنجد من آثارها في القرن الثالث الفهرست كما ذكرنا لابن النديم نفسه .

اما عن العصر العباسي الرابع فنجد

٢١ ـ «الفهرست»لابن خير البلوي (٥٧٥هـ) روى فيه عن شيوخه الكتب المصنفة في ضروب القلم وانواع المعارف وقد بلغ ما ذكره من ذلك (١٤٠٠) كتاب .

٢٢ ـ تاريخ الحكماء للقفطي (٦٢٤هـ)

٢٣ ـ انباه الرواة للقفطي ايضا .

٢٤ ـ معجم الادباء لياقوت الحموي (٦٢٦هـ)

اما عن العصر المغولي . فنستطيع ان نجد من الفن الاول :

٢٥ ـ موضوعات العلوم وتعاريفها للبيضاوي ، عبد الله بن عمر ٦٨٥هـ

٢٦ ـ الازهار الطيبة النشر لابن الحاج العبدري (٧٢٧هـ) .

٢٧ ـ اقاليم التعاليم . للخويني ، محمد بن احمد (٦٩٣هـ) .

٢٨ ـ النويري (٧٣٣هـ) نهاية الارب في فنون الادب .

٢٩ ـ بيان زغل العلم ، للذهبي (٧٤٨هـ) .

٣٠ ـ ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد للاكفاني الانصاري ، شمس الدين . وهو مطبوع .

٣١ ـ مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ) .

٣٢ ـ مقاليد العلوم في الحدود والرسوم للجرجاني ، على بن محمد (٨١٦هـ) وهو يشتمل

على التعريف بـ ٢١ علما ومنه نسخة بالمتحف البريطاني

٣٣ ـ تقسيم العلوم للجرجاني ايضا ومنه نسخة بالمكتب الهندي بلندن .

٣٤ ـ خلاصة القواعد ورعاية المقاصد لابن جماعة (٨١٩هـ) .

٣٥ ـ لسان العرب في علوم الادب لابي التقي (٨٢٨هـ) .

٣٦ ـ انموذج العلوم للفناري محمد بن حمزة (٨٣٤هـ) حصر فيه (١٠٠) علم

٣٧ ـ موضوعات العلوم لعبدالرحمن البسطامي (٨٥٨هـ)

٣٨ ـ شفاء المتألم في آداب المتعلم له ايضا .

٣٩ ـ المطالب الالهية في موضوعات العلوم للمولى لطف الله بن حسن التوقاني المقتول (٩٠٠هـ) ومنه نسختان ، احداهما في فينا والاخرى في المتحف البريطاني .

٤٠ ـ مصابيح الفهوم ومفاتيح العلوم لابن ابي قصة (ق٩هـ)

٤١ ـ انموذج العلوم للدواني ، جلال الدين محمد بن اسعد الصديقي (٩٠٧هـ) نقل ان قبل عشرة علوم ومنه نسخة في برلين وثانية بدار الكتب المصرية .

٤٢ ـ تعريف العلم للدواني ايضا

٤٣ ـ النقـــاية و

٤٤ ـ الدراية في اتمام النقاية و

٤٥ ـ اتمام الرواية في شرح النقاية .(١٩)

وثلاثتهما للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ابن ابي بكر (٩١١هـ) .

اما عن كتب الفن الثاني في هذا العصر المغولي فيمكن ان نجد :

٤٦ ـ عيون الانباء لابن ابي اصيبعة(٦٦٨هـ).

٤٧ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان .

٤٨ ـ اخبار المصنفين واسـماء المصنفات لابي الحسن علي بن انجب البغدادي المتوفى سنة (٦٧٤هـ) .(٢٠)

ولابد من التنبيه من ان اصحاب كتب الطبقات والتراجم كانوا يحصرون للمترجم له كتبه .

وحتى اذا طل العصر العثماني نجد هاتين النظرتين يتغير السير في اتجاههما فبعد ان كانا شبه منفصلين ، تمضيان على انفصالهما في القليل وتندمجان في احيان كثيرة فنجد :

٤٩ ـ اللؤلؤ المنظوم لزكريا بن محمد(٩٢٦هـ)

٥٠ ـ مجمع ملتقط الزهور للقادري الحسيني (٩٣٠هـ) وهو في وصف العلوم المختلفة .

٥١ ـ انموذج الفنون لميرزا خان الشيرازي (٩٤٠هـ) .

٥٢ ـ الرد على انموذج العلوم الجلالية لغياث الدين بن منصور الشيرازي (٩٤٩هـ) .

٥٣ ـ انموذج العلوم الاسلامية واللغوية لعيسى الصفوي (٩٥٣هـ)

٥٤ ـ مدينة العلم لمحمد بن احمد حافظ الدين (٩٥٧هـ)

٥٥ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده (٩٦٨هـ)

٥٦ ـ الدرر المنثورة في بيان زين العلوم المشهورة للشعراني (٩٧٣هـ)

٥٧ ـ عشرة ابحاث عن عشرة علوم لعماد الدين الدمشقي (٩٨٦هـ)

٥٨ ـ روضة الفهوم في نظم نقابة العلوم لاحمد السنباطي (٩٩٠هـ)

٥٩ ـ انموذج الفنون للمولى محمد علي (٩٩٧هـ)

٦٠ ـ تذكرة اولي الالباب للانطاكي ، داود بن عمر (١٠٠٨هـ) وقد عرض في المقدمة لعلوم الطب .

٦١ ـ موضوعات العلوم لكمال الدين محمد افندي بن المولى احمد طاشكبرى زاده (١٠٢٦هـ) طبع في اسلامبول سنة ١٣١٣هـ بمطبعة الاقدام(٢١)

٦٢ ـ معجم العلوم والحروف ـ لم يتم ولم يطبع ـ لعبد النبي بن عبد الرسول بن ابي محمد عبد الوارث العثماني(٢٢) .

٦٣ ـ معادن الجواهر ونزهة الخواطر في علوم الاوائل والاواخر للعاملي (١٠٣١هـ) .

٦٤ ـ عيون المسائل لعبد القادر بن محمد (١٠٣٣هـ)

٦٥ ـ الفوائد الخاقانية الاحمدخانية لملا زادة محمد امين بن صدر الدين الشيرواني (١٠٣٦هـ) الفه باسم السلطان احمد خان وجعل عدد العلوم فيه بعدد جمل اسم احمد أي (٥٣) علما

٦٦ ـ اسماعيل باشا البغدادي . هدية العارفين باسماء المؤلفين وآثار المصنفين . وكالة المعارف في استانبول . الطبعة الثالثة اعادته المكتبة الاسلامية بطهران سنة ١٩٦٧

٦٧ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة .

ونجد بعد هؤلاء ممن سار على طريقتهم ومعتمدا عليهم :

٦٨ ـ ترتيب العلوم الساجقلي زاده (١١٥٤هـ) .

٦٩ ـ الافهام في الالمام وهو على نهج ترتيب العلوم . للأعلمي (١٥٥هـ) .

٧٠ ـ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، محمد بن علاء (١١٥٨هـ)

٧١ ـ رسالة في حد العلم وتقسيمه للاوداني محمد بن مصطفى (١١٦٨هـ) .

٧٢ ـ الرسالة السنية في العلوم السنة للاوداني ايضا .

٧٣ ـ اللؤلؤ المنظوم في معرفة حدود العلوم لمستنصر بن حرم الدين المغربي (١١٧٣هـ)

٧٤ ـ تنويع العلوم ـ لم يطبع ـ للعلامة زين الدين محمد بن علي بن السهروردي الكردي (١٢٠٠هـ)(٢٣) .

٧٥ ـ انواع العلوم ـ لشمس الدين علي الحسيني الشيرازي (١٢٠٥) (٢٤)

٧٦ ـ انواع العلوم لمحمد بن ابراهيم الحسيني المرعشي الحائري (١٢٤٠هـ) لم يتم ولم يطبع . (٢٥)

٧٧ ـ تاريخ العلوم للمولوي (١٣٠٠هـ) .

٧٨ ـ كشف الحجب والاستار عن اسماء الكتب الاحفار للكنتوري اعجاز حسين (١٣٠١هـ).

٧٩ ـ الكواكب الدرية في نظم الضوابط العلمية لعبد الهادي نجا الابياري (١٣٠٥) .

٨٠ ـ ابجد العلوم ـ مطبوع ـ لابي الطيب التنوخي الواسطي، صديق بن حسن خان(١٣٠٧هـ).

٨١ ـ مقدمات العلوم لمحمود بن عمر الجركسي (١٣٠٨هـ) .

٨٢ ـ مبادىء العلوم لمصطفى الحكيم (١٣١١هـ)

٨٣ ـ معارف العوارف في انواع العلوم والمعارف لعبد الحي الحسين (١٣٤١هـ) .

وهذا الجهد لم ينته مع انتهاء العصر العثماني بل مضى فيما بعد يسير على منواله يتضامنان مرة ويفترقان اخرى ، اعنى بهما هذين الاتجاهين في حركة التاليف في هذا الحقل .

فبعد هذا اصبحت فهارس المكتبات ودور المخطوطات هي التي تقوم بهذا العمل فتسد بذلك الجانب الاحصائي وتمس الجانب الاستقرائي اي الحديث عن تقسيم العلوم حديثا عفويا يأتي من جراء توزيع الكتب على الفنون المختلفة .

واخيراً كتاب :

٨٤ ـ التصنيف الببليوغرافي لعلوم الدين الاسلامي لعبد الوهاب ابور النور . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٣(٢٦) .

يلاحظ على الكتب المتقدمة ملاحظات من حيث تصنيفها بالنسبة الى المواضيع التي تعالجها في سته اصناف :

١ ـ فبعضها في الموضوعات فقط على النحو الواضح ومنها احصاء العلوم ، واقسام العلوم العقلية ، وهما يعتبران تصانيف فلسفية للمعرفة البشرية .

٢ ـ وبعضها شمل بعض العلوم وليس على جميع فروع المعرفة كما انه يذكر بعض التفاصيل في هذه العلوم ومنه كتاب الرازي ، والسيوطي ، والشرواني ، والدواني ، والمولى لطف الله وكتاب البسطامي وغيرها .

٣ ـ بعضها يشبه النوع الاول الا انه ازاد في تعريفات العلوم كما انه يعطي بعض عناوين الكتب ومنها ما كتبه ابن خلدون ن وان كان قد اقتصر على عدد قليل من العناوين وكتاب ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد للسنجاري .

٤ ـ وبعضها كتب ببليوجرافية رتبت مادتها ترتيبا موضوعيا وفقا لنظام معترف به للمعرفة البشرية في زمانها وكتاب ابن النديم ينفرد بهذه الخاصية عن الكتب الاخرى وان كان يضم بعض المعلومات وبعض الاخبار عن الكتب وعن المؤلفين ولكنها تأتي استطرادا .

ومهما يكن فهو كتاب ببليوغرافي في المخل الاول .

٥ ـ يعطي قسم منها شروحا وتعريفات للمصطلحات العلمية المستخدمة في كل علم وفن . وهناك كتابان احدهما قديم : مفاتيح العلوم للخوارزمي ، وثانيهما حديث : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي .

٦ ـ منها كتب فلسفية محضة تناول اصحابها ابداء نظريتهم في حقل تقسيم العلوم منها

كتاب الغزالي وابن سينا والفارابي وابن عربي ، واخوان الصفا .

كل تلك المؤلفات العديدة كانت نتيجة اهتمام الفلاسفة والعلماء بهذا الفرع من المعرفة . ولان يحظى بمؤلفات وخطط تصنيف كثيرة انما نشأت كنتيجة طبيعية لعملية التصنيف اذ انها عمل علمي يستلزم كثيرا من الصعوبات مما جعلهم لا تثفق اراؤهم على طريقة واحدة في التنظيم والربط اذ ارتأى احدهم ما لا يرتأ به الاخر .

آملين ان يصل علماؤنا الى خطة تصنيف عربية خالصة نابعة من واقعنا واحتياجاتنا تراعى فيها مقومات الحضارة العربية وقضاياها الفكرية مستمدين من هذه المؤلفات اخذين منها ما ينسجم وروح العصر وكركيزة في تعديل اية خطة تصنيف عالمية حديثة لتتلائم ومقومات فكر وحضارة هذا المجتمع العربي .

المراجع :

١ ـ الحديدي ، خالد . فلسفة علم تصنيف الكتب كمدخل لفلسفة العلوم . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ ص ٤٨ .

٢ ـ دي طرازي . ارشاد الاعاريب الى تنسيق الكتب في المكاتب . بيروت ، دار الكتب اللبنانية ، ١٩٤٧ ص ٩ .

٣ ـ محمد ماهر حماده . المكتبات في الاسلام ؛ نشأتها ، تطورها ، ومصائرها القاهرة ، ١٩٧٠ ص ١٤٥ـ١٥٦ .

٤ ـ المصدر السابق نفسه .

٥ ـ Johson. E. D. History of Libraries in the Western World 2nd. ed. London, 1970 P. 99.

٦ ـ الخفاجي ، محمد حسن . تصنيف العلوم في الحضارة الاسلامية . بغداد معهد الدراسات العليا لعلم المكتبات والتوثيق ، ١٩٧٤ .

٧ ـ التربية والتعليم في الاسلام . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٧ ص ١٧٥ .

٨ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة . تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب ابو النور . القاهرة ، دار الكتب الحديثة ص٢٢٤ .

٩ ـ ابن سينا . البرهان ص١٠٩ وص٢٤٧ .

١٠ـ الكندي . رسائل الكندي الفلسفية . تقديم وتحقيق محمد هادي ابو ريده القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ .

١١ـ الخوارزمي . مفاتيح العلوم . القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٢ هـ .

١٢ـ اخوان الصفا . رسائل اخوان الصفا . تحقيق خيرالدين الزركلي . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٨ الرسالة السابعة من المجموعة الاولى ص ٢٠٢ .

١٣ـ حاجي خليفة . كشف الظنون . المقدمة ص ٨ .

١٤ـ دائرة معارف القرن ١٤ العشرين م ٦ ص ٦١٤

١٥ـ الخفاجي ، محمد حسن . تصنيف العلوم في الحضارة الاسلامية . بغداد معهد الدراسات العليا لعلم المكتبات والتوثيق ، ١٩٧٤ .

١٦ ـ An Introduction to Library classification 9th. ed. London, Grafton, 1958.

١٧ـ الرعشي النجفي في مقدمته لكتاب كشف الظنون ط٣ ، ١٩٦٧ ، ص : ب

١٨ـ حاجي خليفة كشف الظنون . تحقيق محمد شرف‌الدين يالتقايا ورفعت الكليسي . استنبول / مطبعة وكالة المعارف ١٩٤١ ص : ١٩٠٥ لاحظ رقم رقم ٣٦ من القائمة المذكورة هذه .

١٩ـ الحديدي ، خالد . فلسفة علم تصنيف الكتب . ص١٢٠

٢٠ـ الرعشي في مقدمته لكتابكشف الظنون ط ٣ ١٩٦٧ ص: ا

٢١ـ المصدر نفسه .

٢٢ـ المصدر السابق نفسه ايضا .

٢٣ـ انظر موضوعات العلوم في حاجي خليفة . كشف الظنون ص ١٩٠٥

٢٤ـ الرعشي في مقدمته لكشف الظنون ط ٣ ١٩٦٧ ص : ج

٢٥ـ اضافة الى المصادر المذكورة في الهوامش لهذه القائمة اعتمدنا ايضا على فهارس بعض المكتبات في تجميع هذه البيليوغرافيه .